

■ إذا كان التصور الصحيح لإسلامية الأدب

هو- كما يقول أنصاره ومريدوه -

تحريره من التبعية والنقوذ

الأجنبي الوافد، والتماسه

منهج القرآن الكريم في

تصور الأداء والمضمون

للأدب، من خلال عطاء النفس

المؤمنة، والوجدان الأصيل،

المؤمن بالله تبارك وتعالى،

الملتزم لرضوانه، الراضي

بقضائه، والذي يسلم نفسه لله

تبارك وتعالى، إسلاما كاملا في

سبيل الوصول إلى السكينة

والأمن ورضاء النفس، دون أن

يؤثر ذلك في إرادة الإنسان

وحريته في التصرف والتزامه

الأخلاقي (١) .. إذا كان

التصور الصحيح لإسلامية

الأدب هو بهذه المثابة، فإن

الداعين إلى الأدب الإسلامي

يكونون قد كسبوا المعركة من

الجولة الأولى، في مواجهة

المعارضين الراضين لهذا اللون

من الأدب: سواء أكانت معارضتهم

منسوبة على المصطلح فقط «الأدب

الإسلامي» دون المحتوى، أو على

كليهما معا، لأن الفن في نظر الإسلام -

والأدب لغة من لغاته - هو ما يهتف بالإنسان

عن طريق الصورة الجميلة، أو الكلمة الراقية،

حاثا له على أن يتذكر دائما أنه خليفة الله

في أرضه، وأنه يجب أن يصعد دائما في

مدارج الكمال،

ليحقق في نفسه

أكبر قدر ممكن من

الرفعة والاستعلاء

على صفائر

الخصال الحيوانية.

حقيقة الأدب الإسلامي

الأدب الإسلامي

من خلال تصب

كان من الـ

بقدر اهتمامه بنج

بقلم:

صديق بكر علي عطاه

طبيعي في كل مجال من مجالات النشاط الإنساني (٥).

فالأديب والمفكر، كلاهما يستعيد بصورة أو بأخرى ماسبق له من خبرات أو مهارات، ومما لاشك فيه «أن الخبرات النظرية لأي فرد من الأفراد هي مجموع معلوماته العقدية والفكرية والسياسية التي استقر عليها والاقتناعات التي كونها في نفسه وسلوكه إزاءها، وهذه الخبرات النظرية والعملية متشابكة وغير متوازنة، يزيد بعضها وينقص حسب ميول الفرد واتجاهاته ونوعية تربيته الفردية والاجتماعية، فقد تكون الخبرات الفكرية لفرد ما أضعاف خبراته الاجتماعية، وقد تكون خبرات آخر العقدية ضئيلة جداً بينما خبراته السياسية واسعة.. وهكذا أما الخبرات الفنية فلا بد من وجود حد أدنى، وإلا قلنا للأديب عليك أن تعود إلى مقاعد الدرس.

«ولعل أول مكونات الخبرات النظرية - الإطار العام - هو العقيدة، والعقيدة هي كل ما يعتقده الفرد سواء أكان سماوياً أم بشرياً من صنع العقل الإنساني، وذلك أن الإنسان مرتبط دائماً بعقيدة معينة، وحاجته إليها فطرية تلازمه في كل زمان ومكان، لأن فيه ميلاً غريزياً إلى تبني عقيدة ما، توحد أو لاتوحد، بل إن الإلحاد في ذاته عقيدة، لأنه يضع الطبيعة أو الإنسان مكان الألوهية، لذلك لا يمكن أن يتجرد الإنسان من العقيدة» (٦).



هذا فيما يتعلق بقيمة الأدب في تربية الأمم، وتوجيه حركة حياتها، وما ينشأ عن ذلك من ضرورة تنقية الأديب فنه مما قد يشوبه من فساد العقيدة، أو انحراف السلوك والآداب النفسية العامة.

فإذا ما استعرضنا حياتنا الثقافية العامة، وجدناها قد عانت الكثير من الضربات

للمجتمعات، والدافع للبحث بالطرق المؤدية إلى خدمة المجتمع وتحريك الناس من الجمود الذي قد يؤدي بهم إلى الموت، والمجتمع الذي يصل إلى الجمود، مجتمع ميت، والموت ضد طبيعة الحياة المتحركة المتغيرة، ولهذا نجد أن بعض المجتمعات يصل في حركته إلى الأوج، والبعض الآخر ينحدر إلى الحضيض، وكل ذلك راجع إلى حركة المفكرين العاطلين، والأدباء منهم خاصة الذين يبحثون عن المزيد من المعرفة والإدراك ولا يرضون لمجتمعاتهم أن يدركها الجمود الذي يؤدي إلى الموت (٤).

ولذا كان من اللازم على الأديب أن يهتم بمخزونه الثقافي والأخلاقي، بقدر اهتمامه بنجاحه في أداء رسالته: سواء من حيث اتساع رقعة ذلك المخزون وعمقه، أو من حيث نظافته وطهارته، وهو ما يشكل مسئولية الأديب أمام فنه، هذه المسئولية التي تتمثل في أن يوفر له - كما يقول الدكتور عبد الحكيم بلبع - كل مقومات النجاح من ثقافة خصبة أصيلة، تمتد إلى مختلف المعرفة الإنسانية، فكل أديب بل وكل مفكر محتاج إلى أن يعرف عن زمانه وعصره ما استطاع، فثقافة العصر هي التي تمنح الأديب القدرة على تفهم احتياجاته ومشكلاته، ولكن هذا لا يعني أن تنقطع صلة الأديب بترائه وثقافة ماضيه، بل يجب أن تتوطد صلته بهذا التراث وأن يعمق إيمانه به وثقته فيه بوصفه مصدراً مهماً من مصادر المعرفة، فكل ثقافة حاضرة ليست في حقيقتها إلا امتداد واستمراراً على صورة ما للثقافة الماضية، وتلك الحركة الموصلة بين كل ما هو قديم وجديد هي أمر

ولذا كان من الحق والواجب، أن ننسب الفضل لأصحابه في تعريفهم «الأدب الإسلامي»، فقد عرفه الأستاذ محمد قطب في كتابه «منهج الفن الإسلامي» بقوله: «هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود». «هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان، من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان».

«هو الفن الذي يهيئ اللقاء الكامل بين «الجمال» و«الحق»، فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلقي عندها كل حقائق الوجود» (٢).

وهو تقريباً ما عناه الأستاذ الدكتور جابر قميحة عندما عرفه قائلاً: «هو ذلك الأدب الذي ينبع من التصور الإسلامي للكون والحياة في قوالب فنية أسرة» (٣).

وهذا التعريف، هو ما تعضده - صراحة أو ضمناً - كل التعريفات والدراسات التي أطلقها أو قام بها أدباء وكتاب هذا الفن الإسلامي الراقي إلى أن استقر تعريف رابطة الأدب الإسلامي له بأنه «التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي».

ولقد احتل «الأدب الإسلامي» هذه المكانة العالية في نفوس الأدباء والنقاد، الذين دعوا إليه ووطدوا أركانه، لما للأدب - عامة - من بالغ الأثر في حركة الحياة وتحديد اتجاه هذه الحركة، واختيار منهج الأفراد والجماعات، فالأدب هو «المحرك الأول

لامبي.. هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان

ور الإسلام للكون والحياة والإنسان

لازم على الأديب أن يهتم بمخزونه الثقافي والأخلاقي

أحبه ففي أداء رسالته

الموجعة، التي كان لها الأثر البالغ في زحزحة الأدب العربي الأصيل، وبخاصة الشعر عن مكانته، أو على الأقل، فقدانه كثيراً من المساحة الثقافية، التي كان يحتلها لقرون طويلة تمتد في أغوار الزمن إلى ما قبل الإسلام بحوالي مائتي سنة، حتى مشارف عصر النهضة، وذلك بالرغم من هذا السيل الجارف الذي تصببه على أذاننا صباً كل منافذنا الثقافية: مسموعة كانت أو مرئية أو مقروءة، مما يسمى شعراً.. ومع ذلك فإنك لاتكاد تظفر إلا بالقليل النادر جداً من الشعر، الذي يثري الوجدان، ويلهب المشاعر، ويعكس من الإنسان صورته الحية، النابضة بالحياة، والتي تتجاوب مع الكون آخذة ومعطية في حركة دائبة دائمة - حتى ولو مات صاحب النص - في صدق لتضيق إليه ما ينمي المشاعر وتظل نبعا فياضاً، يضاف إلى ينباع الفكر والثقافة والأدب الخالدة.

والسر في ندرة هذا النوع من الأدب، تأثر الأدباء والنقاد بالثقافة الغربية، التي وفدت إلى الشرق مع قدوم الحملة الفرنسية، ثم مع العلماء والمدرسين الذين استقدموا من الغرب، للإسهام في قيام «حركة التنوير» حسبما أطلق عليها فيما بعد، أو قل إساءة الاستفادة منها لدى الكثيرين، وبخاصة في مرحلة ما بعد الثلاث الأول من القرن العشرين - إذ لم يكن هناك بد من التأثر والتأثير بين الآداب العالية.

ومما وفد إلى الشرق مع الاتصال الحضاري بالغرب، المذاهب الأدبية الغربية، التي خضع الشعر العربي لها «خضوع استسلام ومتابعة، ونحن نعلم أن هذه المذاهب لم تنشأ مصادفة، بل هي نتيجة طبيعية لأمرين لابد من تحقيقهما:

الأول: وجود قاعدة فلسفية تحدد أصول النظرية التجريدية

الثاني: وجود عوامل تطور في المجتمع من

حيث نظامه السياسي والاجتماعي والاقتصادي يتيح لتلك النظرة التجريدية فرصة السريان والتأثير» (٧).

ومن هنا نرى النظريات الغربية، وقد شطت بعيداً عن التصور الإسلامي للأدب: فهي، إما تقوم على فلسفة مادية بحتة لاعلاقة بينها وبين متطلبات الروح الإنساني، وإما تعيش بين أجواء الخيال المجنح الذي يبعد عن الواقع الإنساني ويبعد بالأدب عن غايته الأخلاقية في توجيه بني الإنسان، وإما تغوص في بحار من الغموض الرمزي، ثم السريالي، مما أخرج الأدب عن مهمته الجليلة، التي تجمع في رباط أخوي وتلاحم عضوي بين العقل والعاطفة، وبين المادة والروح.

■ الأدب الإسلامي يغطي الحياة

بجانبها المادي والروحي

أما المفهوم الإسلامي للأدب فإنه:

١- يغطي الحياة الإنسانية بجانبها: المادي والروحي معاً، ويصور الإنسان في حال ارتفاعه وسقوطه، نصره وهزيمته، قوته وضعفه، ليخرج في النهاية بخلاصة كريمة لا تفتك بخليفة الله في أرضه، ومانيط به من مهام في هذه الحياة، ولاتصور من لحظة السقوط بطولية للإنسان، وإنما تصورها لحظات عابرة في تاريخه الطويل، يجب أن يرتفع فوقها إذا هو سقط فيها، لأنه يتلخص في عاملين، أساسيين: نفخة من الروح، وقبضة من الطين، تم بينهما ذلك اللقاء الذي أراده الله تعالى في هذه الدنيا.

٢- هو أدب واقعي يجره جوادان لا يستغني بأحدهما عن الآخر: العقل، والعاطفة، فالعقل، إنما يمثل جانب المادة، التي بها يعمر الكون، وتسوخ قدما الإنسان في تربة الأرض ليبني حضارة، تتقدم به في مضمار المدنية الحديثة، التي تسخر عناصر الوجود بأفضل صورة ممكنة، أما العاطفة، فهي التي ترسخ

قوى الترابط بين بني الإنسان، وهي التي تمد أشواقه الطائفة بزاد من القوة، التي تصل ما بين الأرض والسماء، حتى لاتستبد به المادة، وتحوله إلى وحش كاسر، لا يرضى في الله لأخيه إلا ولائمة.

٣- لابد أن تتوافر فيه الفائدة العملية والمتعة النفسية معاً، الفائدة العملية التي تشبع لديه حاجاته الضرورية، وتقيم أوده وتحقق له وجوده وأمانه. أما المتعة النفسية، فهي التي تمده بزاد من القوة الروحية، وتجعله قادراً على التحدي، مستمسكاً بالحياة في أنقى صورها، وأشرف معانيها.

إن المذاهب الأدبية الغربية، إنما تصدر عن رؤية إسلامية، ترتكز على مفاهيم وتيارات خطيرة، تتلخص في هذه النظريات الأربع:

- نظرية فرويد، وما يتصل بها من تصور، أن الجنس وحده هو المنطلق الذي تندفع منه الرغبات الإنسانية.

- نظرية التطور الداروينية، وما يتصل بها من تصور مطلق، يتصل بالمجتمع كله، وأن الإنسان حيوان ناطق.

- نظرية ماركس، وما يتصل بها من أن حركة الحياة تحكمها لقمة العيش.

- الفلسفة المادية التي تقرر أنه لا يوجد إلا المحسوس وحده وأن الغيبيات والنبوة والأخلاق غير معترف بها.

أما الأدب الإسلامي، فإنه يقوم على التصور الإسلامي الذي يعتمد على القواعد الأساسية الآتية:

١- تأكيد الانتماء الإسلامي، والالتزام الإسلامي، ومسئولية القلم.

٢- إعادة الثقة إلى النفس الإنسانية في مغفرة الله تبارك وتعالى ورحمته وفتح صفحة جديدة مع العمل الصالح.

٣- الارتقاء بالإنسان، وتجاوز حالات ضعفه، وعدم التركيز على نقائصه أو تحسينها.

٤- التصدي للحركات الأدبية، والمناهج الأدبية المنحرفة، وإبراز مخاطرها وسيئاتها ومفاسدها.

٥- توجيه المجتمع إلى الاستعلاء على الفاحشة والإباحية، والعودة إلى الأصالة والمناهج والقيم الإسلامية العليا (٨).

هذه هي القواعد التي يقوم عليها التصور الإسلامي للأدب، وهي ذاتها هموم الأديب المسلم، أو هي ما ينبغي أن يشغله، وهو يحمل هموم مجتمعه، لينظر إليه من خلالها كمعايير أخلاقية، إذا كان - حقاً - يقدر الكلمة، وقيمتها وموقعها في بناء المجتمع المسلم.

■ ■ ■

ولأهمية الإخلاص لهذا الاتجاه الأدبي، وخطورة موقعه في بناء المجتمع المسلم، يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه «منهج الفن الإسلامي»: «والفن الإسلامي ينبغي أن يصدر عن فنان مسلم، أى «إنسان» تكيفت نفسه ذلك التكيف الخارجي الذي يعطيها حساسية شعورية تجاه الكون والحياة، والواقع بمعناه الكبير، وزود بالقدرة على جمال التعبير، وهو في الوقت ذاته إنسان يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الإسلامي، وينفعل بها ويعانيها من خلال هذا التصور، ثم يقص علينا هذه التجربة الخاصة التي عاناها، في صورة جميلة موحية.

«وهذا هو الذي لم يتيسر من قبل في الأدب العربي - لسبب من الأسباب - والذي توجد منه اليوم بواكير متفرقة تنبئ بأنه قد ولد بالفعل، وأنه في طريقه إلى التكامل والنضوج.

«وصحيح - من ناحية أخرى - أن المسلم وحده هو الذي تتسع نفسه للتصور الإسلامي الكامل، لأن هذا التصور هو مقتضى الطبيعي المباشر لحقيقة إسلامه، ولأن الإنسان لا يصل إلى هذا التصور الكامل الشامل حتى يكون قد أسلم نفسه لله على

طريقة الإسلام وبمفهوم الإسلام.

«ومع ذلك فإن التصور «الفني» الإسلامي للكون والحياة والإنسان، هو تصور كوني إنساني.. مفتوح للبشرية كلها، لأنه يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، ويلتقي معه كذلك من حيث هو إنسان. ومن ثم يستطيع أي «إنسان» أن يتجاوب مع هذا التصور، ويتلقى الحياة من خلاله - بمقدار ما تطبق نفسه هذا التلقي وذلك التجاوب، فيلتقي مع الفن الإسلامي بذلك المقدار» (٩).

فالأديب المسلم والأديب غير المسلم يلتقيان حول رؤية واحدة تتطابق مع وجهة النظر الإسلامية، حينما يحتكم غير المسلم إلى فطرته النقية، التي تستحسن الحسن وتستقبح القبيح في القول والفعل.

فمثلاً عندما نرى أحد المشركين وقد سمع قول الله تبارك وتعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون» ترى هذا الرجل يقول: إن رب محمد يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر!! والله، لو لم يكن هذا دنيا لكان في ميزان الأخلاق حسناً!!

وعندما نرى الوليد بن الغيرة يقول عن القرآن مخاطباً قريشاً: «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلو عليه، وإنه ليحطم ماتحته».

عندما نرى هذا الكلام وذاك يجريان على لسان المشركين في لحظة عابرة من ليل أوتنهار، ندرك أن «الإنسان» أديباً كان أو غير أديب، حيناً يخلص إلى نفسه، وتتخلص هي من أدان الشرك، وأوهان العبودية لغير الله تعالى يمكن «أن يتجاوب مع هذا التصور، ويتلقى الحياة من خلاله بمقدار ما تطبق نفسه هذا التلقي وذلك التجاوب».

ليس معنى هذا أن نطلق على ما أنتجته قريحة الأديب غير المسلم من هذا كنوع أدباً إسلامياً أو أن نتخلّى عن شرط أن يكون الأديب مسلماً، وإنما يعني هذا أن الأدب الإسلامي، إنما هو أدب الخلق الرفيع والأهداف النبيلة، التي تلتقي في رحابها وتحت دوحها قرائح «البشر» عندما تخلص من كل ما يشوب فيه إنسانية «الإنسان».

ويكفي في تبرير هذا الشرط في اعتباره أدباً إسلامياً، أن الأديب المسلم هو الإنسان الذي يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الإسلامي، وينفعل بها ويعانيها من خلال هذا التصور، ثم يقص علينا هذه التجربة الخاصة التي عاناها، في صورة جميلة موحية» فشرط إسلام الأديب هنا، إنما كان لضمان عنصر الصدق الشعوري الذي هو شرط القبول في أي عمل أدبي أو فني.

■ ■ هوامش:

- (١) أنور الجندي - مجلة الأدب الإسلامي - المجلد الأول - العدد الثاني ص ٣.
- (٢) ص ٨.
- (٣) مجلة الدارة - العدد الأول - السنة العشرون ص ١١١.
- (٤) عبدالله زكريا الأنصاري - الثقافة. عدد مارس ١٩٧٤ ص ٣٠.
- (٥) مجلة الثقافة «ماهية الأدب ومسئولية الأديب في العصر الحديث».
- (٦) د. عبدالباسط بدر - مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي ص ٢١، ٢٢.
- (٧) د. محمد مصطفى هدار - مجلة الأدب الإسلامي السنة الأولى - العدد الثاني.
- (٨) أنظر أنور الجندي في «مجلة الأدب الإسلامي» ومجلة «الثقافة».
- (٩) ص ١٨٢، ١٨٣.

